# اللغة والفـــــكر ...

للاستاذ محمد محمود زيتون

جرت العادة فى تعريف الإنسان على أنه حيوان ناطق ، وهذا النطق الذى امتاز به الانسان عن الحيوان معناه التفكير والتعبير ، والتفكير عملية تجرى فى عالم الداخل تترجم [illegible] ونزعاتها لعالم الخارج ، بإشارات إرادية مسموعة أو مقروءة هى اللغة .

اللغة لا تتحقق من دون فكر . وقد يكون فكر من غير لغة ، لأن الفكر إما نفسانى أو لسانى ، والأول منهما أقرب إلى الوجود من الآخر . لأن الوجود هو موضوع الفكر ومجال نشاطه . والفكر بدوره يصبح موضوع اللغة ودعامتها الأولى . ثم هوموجود ما دام الوجود ، وحيث لا وجود فلا فكر ، وليس يصح فى الأذهان أن شخصا يفكر فى لا شىء ، أو أنه لا يفكر فى شىء . والتفكير أدل على الوجود من التعبير : فإن كل المفكرين أحياء ، وليس كل الأحياء مفكرين ، ولذا قال ديكارت قالته المشهورة «أنا أفكر ، فأنا موجود»

ونحن بذلك نخالف «لويس دى بونالد» فى قوله بأن لا فكر بدون لغة ، ذلك بأن الفكر هو عالم المعانى النفسانية ، واللغة عالم الألفاظ اللسانية . واللغة كال الفكر . ولا عكس ، لأنها تستوعبه ، وهو لا بد له منها ، وهى لا بد لها منه ، ولما كانت صورة التمثال دليلا على مادته ، والثوب دليلا على لابسه ، فهل اللفظ دليل على معناه ؟ وعلى أى وجه تكون دلالة اللفظ على المعنى ؟ وبعبارة أخرى ما النسبة بين اللغة والفكر ؟

البارعون قليل ، وكم يتمنى الناس على كثرتهم أن يكونوا أمثال هؤلاء البارعين على قلتهم ، وهذا ما نراه فى ازدحام الناس على سماع فنان يغنى ، ونحن جميعا نأكل اللحم أصنافا وألوانا ، ولكن يندر منا من يعرف كيف يتخير اللحم عند القصاب . وكلنا نفكر ولكن أقلنا من يفكر تفكيرا صحيحا سليما .

فإذا كان الغناء براعة ، ومعرفة أصناف اللحوم براعة ، فلا عجب أن يكون الفكر نشاطا إنسانيا بارعا ، وإن كان عند ديكارت أعدل الأشياء توزعا بين الناس . والتفكير أضيق نطاقا من التعبير ، فهو كالقوة الكهربائية لها طاقة تدير الآلات وتدبر أمور الحياة .

ويكون التفكير صحيحا إذا روعى فيه شرائط أربع :

أولا : استيضاح موضوع التفكير بالألمام بشتى خصائصه .

ثانيا : امتحان الوسائل الممكنة لإتيانه قولا أو عملا أو معرفة أو اعتقادا .

ثالثا : اختيار أقرب المسالك وأقوم السبل .

رابعا : الربط بين هذه الشرائط جميعا .

والواقع أن تلك هى خطوات التفكير العام عند المهندس والكيميائى والفيلسوف جميعا حينما يزاول أحدهم فنه ، بل هو منهج السلوك الانسانى فى هذه الحياة . ونحن إذ نفكر تزداد قدرة على التفكير يتسع معها مجاله ، وبراعة التفكير تستلزم التعمق والتوسع معا ، كما هو الشأن فى تخصص العلماء فى أدق الأمور .

التفكير إذن تفاعل بين القوة المفكرة ومظاهر الوجود ، واللغة نتيجة هذا التفاعل . ولما كان الناطق هو المفكر المعبر معا ، فإن للغة إذن مكانتها من الانسانية . إذ الانسان مفطور على الاجتماع ببنى جنسه اجتماعا إنسانيا أى بكلا شطرى إنسانيته . أما الشطر الأول — وهو التفكير — فلا يكفى وحده لتحقيق هذا الترابط ، وكذلك الشطر الثانى — وهو التعبير — لا يكفى وحده لتحقيق ذلك . فكان من اللازم أن تتحالف اللغة والفكر ما دامت الانسانية وما دام الوجود .

ولما كانت اللغة تستوعب الفكر ، فقد أصبحت العنصر الأول والدائم فى التقدم والعمران . فالناس يترابطون باللغة ويتعاملون بها ، وكلما يسرت اللغة بين الناس ، خطوا نحو الحضارة بأوسع الخطوات ، وما طرق المواصلات على اختلافها إلا لغات بين الأفراد والقبائل والشعوب . والانسان بطموحه المعهود لا يكتفى بما لديه من مواصلات ، ولا يقف نشاطه على عوالم يعرفها ويتعامل معها ، لذلك عمل على التعرف بأبناء الكواكب ، والتحدث إليهم فى شجون وفنون ، وأعانه على ذلك تطور المواصلات من التعقيد

إلى التبسيط ، ومن البطىء إلى السريع : من رجليه إلى أحدث ما عرف وسيعرف من وسائل؛ تدرجت من الدواب إلى المجلات، من السيارة إلى الطيارة ، إلى الصاروخ الأوتوماتيكى ، ومن التليفون إلى التلغراف ، ومن الطرق البرية والبحرية والجوية إلى اللاسلكية ، ومن التلفزيون إلى التليرتر ، وما تزال الليالى حبالى يلدن كل عجيبة ، وذلك اتجاه لا ننكره على العقل الانسانى الذى لا يطيق الفوضى ، ولا يحتمل الكثرة ، ولا يرضى بحمل الأثقال: فقديما لم يعرف الإنسان العدد ، وقديما أخرج (باقل) لسانه ليكمل بأصابعه العشر ثمن جدى اشتراه ، وما زال العقل يختزل حتى عرف خصائص العدد فأغنته عن المعدود ، وترق من الأرقام الحسابية إلى الرموز الجبرية ، ومن الأشكال الهندسية إلى التحليل الهندسى، فاستحالت النظريات الهندسية من ألفاظ تنطق وأشكال ترسم إلى معادلات .

واللغة مكتوبة أو منطوقة هى إشارات لا تمت إلى ما تشير إليه بصلة من قريب أو بعيد ، فليس ثمة شبه ولو قليلا بين كلمة « كلب » أو صوتها أو شكل كتابتها ، وبين الحيوان المشار إليه بها لا شكلا ولا لونا ولا طعما ولا أى شىء آخر . بل يروى أن سبب تسمية حيوان «الكنجارو» هو أن الانجليز عند استعمارهم استراليا، سألوا أحد السكان عن اسم هذا الحيوان فقال «كنجارو» أى « لا أدرى » فظن الإنجليز أن هذا الحيوان اسمه « لا أدرى» فصار اسما ملازما، والواقع أن الانجليزى والاسترالى وغيرهما يعرفون الحيوان ويدركون صورته ، ولكنهم — وإن اتفقوا على تسميته باسم « الكنجارو» — لا يدرون من سبب لتسميته .

والحق أننا نجارى السابقين فيما تواضعوا عليه من أسماء ، وأن اللاحقين يجاروننا فيما نوارثناه عن السابقين من غير معارضة ولا مناقشة ، ومن غير ما سبب أو ضرورة .

ومما هو جدير بالذكر أننا بالاتفاق والاصطلاح نجمع على المشار إليه أولا ثم على ما نشير به إليه ، وبذلك يكون العقد اللغوى صحيحا . فالشىء واحد واسمه واحد . ولكن هل أفكارنا عن المسمى واحدة ؟

الواقع أنها ليست واحدة ، ولن تكون كذلك : لأن مشاعرنا وميولنا — فضلا عن مدى معارفنا — كلها تحدد أفكارنا تحديدا وتقريرا . فدلول اللفظ واحد عند كل الناس ، ولكن معناه يختلف فى الكيف والكم عند كل واحد منهم على حدة . وعلى ذلك يكون لدينا : اسم ومسمى وفكرة . وغالبا ما يتحد الاسم ، وغالبا ما يتحد المسمى ، ولكن من المحال أن تتساوى الفكرة لأنها أشبه بدوائر الماء التى فيه بحجر، فهى تتسع وتتسع إلى ما لا نهاية له من الأمواج .

والفرق واضح بين الاسم والفكرة لأن الاسم هو الدلالة على المعنى الاصطلاحى الذى يفهم من اللفظ عند إطلاقه ، والذى من أجله أطلق الاسم على مسماه دون غيره ، أما الفكرة فهى مفهوم الشىء من غير قيد ولا شرط . ولا بأس من التعرض للخلاف الفلسفى الدقيق الذى دار بين J.S. Mil ( جون استيوارت مل ) و ( جيفونز ) ، فالأول يعتبر المعنى اصطلاحا وصالحا للتعامل لأنه عام ، ويسميه Connotation والآخر يعتبره فكرة خاصة بصاحبها ويسميه Comprehension أو Subjective Intention فهو خاص أو أخص الخاص ، وذلك أدعى إلى النفرة والخلاف ، بسبب اختلاف الناس فى مدى تجاربهم عن الحياة ، ولعدم وجود رابط للتوفيق بينهم ، ما دام السلوك الانسانى شخصيا ، والسلوك الحيوانى فرديا. إذ الانسان — كما يرى علماء البيولوجيا — ( شخص ) Person بينما الحيوان ( فرد ) Individual

ومع ذلك لو تركنا للفكر حبله على غاربه لذهب بنا إلى وديان ومتاهات لا نهاية لها ، ولا متنع — مع هذا التيه والبعاد — ما هو مرجو من الفكر ، لتحقيق أغراض اللغة كأول رابطة تعاونية بين الانسان والإنسان .

لهذا تنازل الناس إلى بعضهم بعضا عن الحقوق المحفوظة فى الخواطر والمشاعر والأنظار ، وهداهم الأمر إلى الاتفاق على مسمى الاسم وهو القاسم المشترك الأعظم بين أفكار الناس من مفاهيم الألفاظ .

ومما يقوى تركيز الأفكار ويمنع تشتتها استغراق المشاعر والميول فى النظر إلى الأشياء . فكلما اتحدت مشارب الناس وتوافقت طباعهم وعوائدهم قل الخلاف على معانى الأشياء اختيارا واستعمالا . وعلى العكس من ذلك إذا تنافرت الطباع وتناكرت

الأرواح بعد ما بين الناس ، وصعب التوفيق ، وصار صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد .

فنى الهند ٢٢٢ لغة يصعب معها تفاهم القادم من ( عباى ) مع المقيم فى ( مدراس ) ، وليس ذلك إلا مظهرا للخلافات والفوارق الاجتماعية . فلا عجب إذا قلنا إن الانحلال الاجتماعى يتبعه دائما انحلال لغوى ، إذ تعود الأفهام إلى الفوضى الذهنية الأولى فتهمل الاتفاقات والمعاهدات وتضرب بها عرض الحائط .

وهكذا تكون اللغة مرآة تنعكس على صفحتها مجرى الحياة القومية لشعب من الشعوب ، فقد طغت الموجة السفسطائية على الحياة اليونانية ردحا من الزمن فتشتت الشمل ، وساد الانحلال الخلقى ، واستبدت بالشباب نزعة الاستعلاء بالباطل ، والتمويه والتزويق ، وكادت الروح اليونانية تلقى مصرعها النهائى لولا أن أتاح الله للفكر الإنسانى سقراط الحكيم الذى وجه كل كتائبه الأولى نحو تحديد الألفاظ ، فقطع على السفسطائيين أفاعيلهم ورد إلى الإنسانية كرامتها الفكرية .

والانجليز بسودهم ( المادية ) حتى فى مجال الحياة المعنوية ، فهم يقولون Pay a viait زر ويقولون Pay Attention انتبه وهكذا يجعلون الزيارة والانتباه كالمال يدفع

كما أن الفرنسيين يهتمون بالمبالغة والمغالاة ، لهذا تعددت فى لغتهم مرادفات كلمة ( جدا ) فيقولون : trés, trop, si, assez, bren, Complètement, entièrement, tout, à fait, beaucoup, parfeitament, rigoreusement, absoluement,

وهكذا تكون اللغة مقياسا دقيقا للروح القومية فى خصائصها العامة من جهة ، وفى التضامن الاجتماعى أو التفكك والانحلال من جهة أخرى .

والسر الخفى فى هــذا القياس يرجع إلى النسبة بين اللفظ والمعنى ، لهذا يجب أن نعرف أن دلالة اللفظ على المعنى تكون بإحدى ثلاث :—

أولا : « المطابقة » أى يكون اللفظ عين المعنى وليس غيره كما نطلق لفظ الإنسان على الحيوان الناطق ، ولفظ البيت على مجموع الجدران والسقوف .

ثانيا : « التضمن » أى يكون اللفظ دالا على جزء من أجزاء المعنى المطابق كما نطلق لفظ الانسان على الحيوان وحده ، ولفظ البيت على الجدران فقط .

ثالثا : « الالتزام » أى يكون اللفظ مطابقا للمعنى الذى يلزمه أمر آخر ليس جزءا منه ولكن مصاحبا وملازما ومستتبعا . كما نطلق لفظ المخلوق على الخالق ولفظ البيت على الكوخ .

ودلالة الالتزام ليست فى الحقيقة دلالة لفظية ، بل هى انتقال الذهن من المعنى الذى دل عليه اللفظ بالوضع إلى معنى آخر ملاصق له أو قريب منه . فاللفظ يدل على المعنى كله أو جزئه أو شىء آخر خارج عنه ملازم له .

والعلوم إنما تستعمل الألفاظ المطابقة على معانيها حتى لا يختلف فى الأمر اثنان أو على الأقل يكون الخلاف أقل من أى خلاف آخر توجده الدلالتان الأخريان . فدلالة التضمن ودلالة الالتزام هما سبب شطحات الخيال ، ونزوات السفسطة . ودلالة المطابقة لا تكون إلا بالاتفاق والاصطلاح . وحرصا على التركيز العلمى ، عمدت كل طائفة من العلماء إلى معاجم اتفقوا على وضع مصطلحاتها ، ولهذه المعاجم القول الفصل فى كل خلاف . من ذلك ما صرح به المستر تشرشل إبان الحرب الأخيرة إذ قال Egypt which is under our protection ، فما كان من ساسة مصر النابهين إلا أن فطنوا إلى التورية الانجليزية واللفتة اللولبية التى اشتهرت بها ، فطلبت حكومة مصر إيضاحا لهذه الكلمة التى ربما انطوت على معنى « الحماية » التى جاهدنا بأموالنا ودمائنا فى سبيل فك أغلالها عنا ، ونزع كابوسها ، فما لبث تشرشل أن فسر قصده بأننا علينا أن نحميها Protct it وفق المعاهدة وبذلك انحسم النزاع ، وأغمدت الدماء فى القلوب .

ولا شك فى أن دلالة المضمون تعنى الأديب اللغوى فى بحثه عن البيان والمجاز من إرادة الكل وإطلاق الجزء ، كما أن دلالة الالتزام لا تعنى المنطقى ولا اللغوى وإنما تعنى أهل الفن فى تخيلاتهم ، وتصوراتهم ، فالشاعر يتخيل ويتصور ، ويخلع على الموجودات والمعانى من شخصه روحا وجسدا ، والمثال يبرز المعانى ويجسمها